العربي الجديد

هوامش

رغم أن الجميع يعلم أن النازيين أشرفوا على معسكر «أوشفيتز» حيث قضى أكثر من مليون شخص خلال الحرب العالمية الثانية، فهو ألحق «عاراً» كبيراً بالبولنديين الذين تستقبل أرضهم المعسكر

شعار الموت عند مدخل معسكر «أوشفيتز» (آرثور فيداك/ Getty)

«أوشفيتز» النازي

جرح مستمر في ذاكرة البولنديين

موسكو ـ **رامي القليوبي**

بعد مرور نحو ثمانية عقود على تأسيسه قرب مدينة كراكوف جنوب بولندا، لا يزال المعسكر النازي «أوسفينتسيم» أو «أوشفيتز بيركينو» بالألمانية الملقب بـ «معسكر الموت»، صفحة مأساوية في التاريخ، وأحد أبرز رموز «الهولوكوست» (المحرقة النازية)، وجرحاً ينزف في ذاكرة تاريخ البولنديين الذين يحاولون تبرئة أنفسهم من الجرائم التي ارتكبت هناك. وخلال خمس سنوات من وجود المعسكر أثناء الحرب العالمية الثانية وصولاً إلى تحريره مطلع عام 1945، تحوّل «أوشفيتز بيركينو» إلى أكبر معسكر للعمل الإجباري والإبادة قضى فيه أكثر من مليون شخص جلّهم من اليهود، داخل غرف إعدام بالغاز اتسعت كُبراها لألفي شخص. ورغم وضع لافتة فوق مدخل المعسكر تقول باللغة الألمانية: «العمل يؤدي إلى الحرية». لكن الواقع كان مغايراً تماماً، إذ اعتمد النازيون العمل الإجباري وسيلة للإبادة الجماعية في معسكراتهم. بعد هزيمة النازيين في الحرب العالمية الثانية عام 1945، تحوّل معسكر «أوشفيتز» إلى متحف أدرج لاحقاً على قائمة «يونسكو» للتراث العالمي، كي تحتفظ الأجيال الجديدة بذكرى الصفحات الأكثر مأساوية في تاريخ العالم تمهيداً لمنع تكرارها. وفي عام 2007، أضافت «يونسكو» كلمة «الألماني» إلى التسمية الرسمية للمعسكر تحت ضغوط دبلوماسية بولندية. وهنا، يلفت الباحث في مركز الدراسات الأوروبية بمعهد الاقتصاد العالمي والعلاقات الدولية التابع لأكاديمية العلوم الروسية، ستانيسلاف كوفالدين، إلى أن «معسكر أوشفيتز لا يزال جرحاً ينزف في ذاكرة البولنديين الذين يبذلون جهوداً حثيثة لإثبات أنه نازي بامتياز، ولا يمت بأي صلة إلى الدولة البولندية التي احتلها النازيون خلال فترة الحرب العالمية الثانية».

يقول كوفالدين لـ«العربي الجديد»: «يرفض البولنديون تسمية المعسكر بأوسفينتسيم، ويصرّون على اعتماد التسمية الألمانية أوشفيتز. والحقيقة أن الألمان تولوا إدارة المعسكر، في حين لم توجد أثناء الحرب العالمية الثانية حكومة بولندية متعاونة مع النازيين. وفي عام 2018، قررت وارسو إخضاع من يتهم بولندا بالضلوع في جرائم النازيين لمساءلة قانونية، وهو ما اعتبرته تل أبيب وواشنطن بمثابة عدم رغبة وارسو في الحديث عن الهولوكوست». ويلفت كوفالدين إلى أن «ماكينة الإعدامات بأوشفيتز لم تطاول اليهود فقط، بل شملت عشرات الآلاف من الأسرى السوفييت والغجر والبولنديين أنفسهم».

في عام 2019، الذي سبق تفشي جائحة كورونا والقيود التي فرضها على حركة السفر حول العالم، استقبل معسكر «أوشفيتز» رقماً قياسياً من الزوار تجاوز 2,3 مليون. ويضم مجمع متحف «أوشفيتز بيركينو» عدداً من مباني المعتقلين، حيث عاشوا في ظروف بالغة القسوة وغير إنسانية، وكذلك أفراناً استخدمت في حرق جثث المعدمين، وخطاً للسكة الحديدية استخدم في نقل المعتقلين إلى المعسكر على متن عربات شحن، وعدد من المقابر والنصب التذكارية التي تخلد ذكرى الضحايا. وتأسس معسكر «أوشفيتز» في مايو/ أيار 1940 في مواقع لثكنات عسكرية سابقة للجيش البولندي. وجرى توسيعه تدريجياً باستخدام العمل الإجباري، وظل مفتوحاً حتى تحريره من قبل الجيش السوفييتي الذي دخل جنوده المعسكر في يناير/ كانون الثاني 1945.

في المعسكر، تحوّل كل يوم من حياة المعتقلين إلى معركة للنجاة، فهم كانوا يقيمون في مبانٍ بدائية لا توفر متطلبات حمايتهم من تقلّبات الظروف الجوية الصعبة، وينامون في غرفها على أسرّة خشبية، ويتناولون طعاماً فاسداً تسبب مرات بإصابتهم بأمراض معدية انتشر بعضها سريعاً في المعسكر. ولم يتم توظيف عمل المعتقلين داخل المعسكر فقط، بل كانوا يرسلون إلى مناجم للفحم ومقالع الأحجار، ويجبرون على تنفيذ أعمال لمد أنفاق وقنوات مياه، وأخرى مرتبطة بمشاريع قطاعات خاصة. كما أخضع معتقلون بينهم نساء وأطفال إلى اختبارات طبية قاسية بلغت حد استخراج أعضائهم لإجراء «بحوث علمية». ومن أجل نزع أي ملامح فردية تساعد في تمييز المعتقلين، كانت تحلق رؤوسهم وترسم وشوم لأرقام مخصصة لهم على ساعدهم الأيسر.

وكاد الهروب من المعسكر أن يكون مستحيلاً بسبب تطويقه بسلك كهربائي شائك، ومراقبته من حراس يعتلون أبراجاً مدججين بأسلحة رشاشة. وفي ظل هذه الظروف القاسية، اختار معتقلون كُثر الانتحار عن طريق إلقاء أنفسهم في الأسلاك المكهربة، بينما اختار آخرون الصمود والنجاة من أهوال الجحيم على الأرض، ولا يزال عدد قليل من المعتقلين أحياء، ويحضرون إلى المعسكر للمشاركة في مراسم إحياء ذكرى الضحايا.

باختصار

أكبر معسكر للعمل الإجباري والإبادة قضى فيه أكثر من مليون شخص جلّهم من اليهود، داخل غرف إعدام بالغاز اتسعت كُبراها لألفي شخص.

■■■

ماكينة الإعدامات بأوشفيتز لم تطاول اليهود فقط، بل شملت عشرات الآلاف من الأسرى السوفييت والغجر والبولنديين.

■■■

في عام 2019، استقبل معسكر «أوشفيتز» رقماً قياسياً من الزوار تجاوز 2,3 مليون.

وأخيراً

امرأة وطربيزة بلاستيك ومجتمع

رشا عمران

كانت تمشي أمامي في الشارع الموصل إلى منزلي. سيدة أربعينية محنية الظهر وقليلة الهامة، ترتدي اللباس الذي ترتديه النساء المصريات في المناطق الشعبية، ملاءة سوداء وغطاء رأس أسود، وتحمل في يدها طربيزة بلاستيك حمراء اللون من النوع رخيص الثمن، وبيدها الأخرى تمسك هاتفها المحمول غير الذكي، وتتكلم به بصوت تمكنت من سماعه بسبب قربها مني: «عايزة إيه حاجة حلوة أجيبهالك معايا؟ بصّي أنا جايبالك الطربيزة اللي حاتذاكري عليها، بس عايزة أجيبلك كمان حاجة حلوة، نفسك رايحة على إيه؟». بدأت أتخيل فخر هذه السيدة وسعادتها، وهي التي لا يمكن لأحد أن لا يلاحظ آثار الشقاء على وجهها وجسدها، وهي تراقب ابنتها جالسةً على الأرض، وتضع كرّاساتها وكتبها على الطربيزة البلاستيك الحمراء الصغيرة، وتذاكر واجباتها المدرسية. بدأت أتخيّل أيضا فخرها حين تكبر ابنتها وتدخل الجامعة وتتخرج منها، «ما رحش تعبها هدر»، هذا ما سوف تشعر به حتما. تقول لي سها، الشابة المصرية الجميلة التي تساعدني في أعمال البيت، المبتسمة دائما: «عايزة ابني يتعلم أحسن تعليم». لديها ولد واحد، وضعته في مدرسةٍ شبه خاصة كي يحصل على تعليم محترم، «التعليم في المدارس الحكومية مش ولا بد»، وتدفع لمدرّسين خصوصيين يدرسون ابنها موادّ تشعر أن المدرسة لا تفيده كثيرا بها. نزّلت سها على هاتفها المحمول تطبيقا لتعليم اللغة الإنكليزية، تسمعه وهي تعمل، كي تتعلم تلك اللغة التي أصبحت طلبا رئيسا في أي عمل ووظيفة في بلادنا العربية. قالت لي حينما سألتها: «عايزة أعرفها عشان لو ياسين احتاج سؤالا في اللغة الإنكليزية أعرف أجاوبه». تريد لابنها أن يتقن هذه اللغة، وتُحاول هي معرفة ما يمكنها منها، كي لا تشعر بفرق ثقافي بينها وبينه.

ليست سها، ولا السيدة التي تحمل طربيزة بلاستيك حمراء رخيصة الثمن، استثناءين بين النساء المصريات اللواتي ينتمين إلى الطبقات الشعبية، أو الطبقة المتوسطة الآيلة إلى الزوال، فحضور هاته السيدات في الشارع المصري واضح جدا، بائعات الخضار وبائعات الخبز، عاملات التنظيف في كل مكان، بائعات في المحلات الراقية والمحلات المتوسطة، في المولات، في عيادات الأطباء، في الدوائر الحكومية، بائعات علب المناديل والفول السوداني. ثمّة حضورٌ واضحٌ لهذه الطبقة من النساء في المجتمع المصري، وثمّة رغبة ليس من الصعب اكتشافها لديهن بأن يعيش أبناؤهن وبناتهن حياة مغايرة لما عشنه هن، سواء في التعليم أو زواج بناتهن. لا يتوقفن عن العطاء في سبيل ذلك، حتى أن ثمّة مصطلح لم أسمعه سوى في مصر هو «الغارمات»، وهن أمهاتٌ ينتمين إلى هذه الطبقات يوقعن أو يبصمن على سندات أمانة مقابل شراء مستلزمات الجهاز لبناتهن حين زواجهن، وغالبا ما يعجزن عن تسديد السندات فيدخلن السجون تحت مسمّى الغارمات، واللافت أن هناك حملات دائمة للتبرّع لتسديد ما في ذمّة الغارمات وإخراجهن من السجون.

> حضور المرأة في شارع العمل المصري واضح جداً، ويكاد يكون هو الغالب

لا أعرف كثيرا عن حال المرأة من هذه الطبقات نفسها في سورية خلال هذه الفترة، لكنني أعرف أن حضور المرأة السورية قبل 2011، ومن كل طبقات المجتمع، كان قليلا وغير ملموس في المجتمع السوري، إلا في شرائح مجتمعية قليلة (فنية وثقافية وزراعية). كانت المراة موجودة لخدمة البيت فقط. استمر هذا طويلا في المجتمع قبل أن يسمح الرجل لزوجته بالعمل في الوظائف الحكومية بعد الاحتياج المعيشي إلى أكثر من دخل، والذي بدأ مع ثمانينيات القرن الماضي، بينما ظل حضورها في الشارع عاملة نادرا وقليلا، بسبب ذكورية المجتمع السوري، حتى طقس الزواج وتكفل العريس بكل شيء هو من باب الذكورية لا أكثر، بينما حضور المرأة في شارع العمل المصري واضح جدا، ويكاد يكون هو الغالب. وربما ستسمع من كثيرات، لو تكلمت معهن، حكايات عن أزواج عاطلين من العمل، أو مرضى أو مدمنين. ومع ذلك لا يكفّون عن التنمّر على زوجاتهم وأولادهم، وعلى المرأة التحمّل، ففي هذه الطبقات يصبح المثل «ظل راجل ولا ظل حيطة» هو حماية مجتمعية لهاته النساء العاملات.